

اجتهادات إسكندرية المستباحة

ما أشقاها الإسكندرية فى الصيف. كُتب عليها أن تتحمل مخلفات أعداد هائلة من المصيفين. لا يعرف معظمهم قيمتها فى التاريخ والجغرافيا والثقافة والحضارة. لم يقرءوا عن إبداعاتها الإنسانية منذ أن بناها إسكندر المقدونى، واحتضنت مدرسة أفلوطين الفلسفية، وأنشئت فيها المكتبة القديمة التى كانت أهم مكتبات العالم، وشُيّدت منارتها لتكون من عجائب الدنيا.

لم يروها حين كانت إحدى أجمل مدن البحر المتوسط وأكثرها نظاماً ونظافة. لا يدركون أن لسكانها حقوقاً على من تستضيفهم فى الصيف. أبسط هذه الحقوق أن يحرصوا على الحد الأدنى من مقتضيات النظافة.

ذهبت إلى الإسكندرية قبل أيام لأداء واجب العزاء. وجدت زحام المصيفين أقل بسبب قرب بداية العام الدراسى. عرفت أن الوضع تفاقم خلال إجازة عيد الأضحى الطويلة، وكان ثقیلاً على أقدم مدن مصر وأكثرها انفتاحاً قبل أن تحل عليها لعنة الانغلاق الثقافى والاجتماعى الذى غيّر طابعها منذ الخمسينيات، وجعلها لقمة سائغة لتيارات سلفية أجهزت على ما بقى من وجهها الحضارى. يبدو حضور هذه التيارات بثقافتها البدوية غريباً فى مدينة استمدت خصوصيتها من طابعها البحرى.

وكما يحدث عادة حين يأتى التخلف بتيارات ظلامية وشبكات مصالح

عاتية، تكالبت هذه وتلك على المدينة حتى فقدت أهم ما ميّزها عبر التاريخ، وهو أنها مدينة متوسطة مفتوحة ومنفتحة.

خرّبت التيارات الظلامية طابع الإسكندرية الحضارى المتوسطى، وعزلتها شبكات المصالح عن البحر الذى استمدت وجودها منه، واستولت على الجزء الأكبر من ساحله.

شعرتُ بأن الإسكندرية تدير ظهرها للبحر وتتوجه إلى الصحراء. تخيلتُ أن البحر يشكو ويُذكّرنا بما كتبه أبو الحسن المسعودى عنه فى القرن (العاشر فى كتابه البديع (مروج الذهب ومعادن الجواهر

كتب المسعودى أن البحر الأبيض صنع على امتداد سواحله مدناً جميلة، وسماه بحر الروم وطرطوس وأذنة وأنطاكية والإسكندرية واللاذقية وصيدا وغير ذلك من ساحل الشام ومصر والمغرب. حملتُ فى طريق عودتى شحنات من الحزن على الإسكندرية التى لم يعد لها من تاريخها وحضارتها شئ، ولم يبق من ساحل بحرّها إلا مساحات محدودة لن تمضى بضع سنوات حتى تكون شبكات المصالح قد ابتلعته. فهل من مُنقذ؟